أحادية اللغة وهيمنة الهوية ترميم الأصل وتفسير التحول في فلسفة جاك دريدا ***

د. بن يمينة كريم محمد / جامعة سعيدة

«أنا أحادي اللغة Monobilingue، وأحاديبي هذه كانت وستبقى بيبي، هكذا أحسبها، وهكذا أسكنها وتسكنني، وهكذا سبتقي - إن الأحادية التي أتفلسفها هنا هي بمثابة العنصر الحاسم في حياتي، عنصر لا هو بالطبيعي، ولا هو يمثل شفافية الأثير، بل إنه وسط بين هذا وذاك [...] هذه الأثانة Solipsisme التي تعد بمثابة معين لا ينضب هي أنا ذاتي قبل أن أكون أنا وقبل أن استقر».

جاك دريدا-أحادية الآخر اللغوية ص143.

استهلال*:

تشكل الهوية استقطابا مرجعيا لكل ممارسة خطابية وتواصلية، وأصلا تراثيا يستمد أنطولوجيته من الانتماء إلى الدين والسياسة، والثقافة والأيدولوجيا والأخلاق، واللغة في أشكالها الرمزية، وتأويلاتها التوهيمية، وتفاعلا سوسيوولوجيا في أوساط معينة، وبيئات معلنة، وكذا استقلالية سيكولوجية تميز كل فرد في نفسه عن غيره، لتشكّل فكريا منظوماتيا فريدا، وسياقا نظاميا متفردا، لكن كل هذه التخوم لم تحرر الهوية من مشكلاتها الابستيمية كأزمة الأصل (الجينيولوجيا) ومنطق التحولات (البراكسيس) في ظل التفسيرات المعاصرة، وترميمات العولمة نشوءًا وارتقاءً.

يصرح جاك دريدا Jacques Derrida (1930-2004) بأنه يملك لغة واحدة [الفرنسية]، وهي ليست لغته، فهو فرنسي الجنسية، جزائري الولادة، ويهودي الأصل. «لا أمتلك إلا لغة وهي ليست ملكي، لغتي "الخاصة"، هي لغتي غير القابلة للانحلال. لغتي الوحيدة التي أفهم بها وأسمع بها، وهي ناطقة، هي لغة الآخر». هذا التيه الذي رافق دريدا في حياته وكتاباتة الفلسفية، ولغته الأدبية وخصوصياته النفسية... ورغم أنه أضاف إلى هذه اللغة الغريبة عنه الكثير من هويته التي علمته التماهي في عوالم التجدير، والانقلات من هستريا الجدموز، إلا أنه كان يشعر بالاعتراب خارج هذه اللغة وداخلها، مثلما كان يحن (نوستالوجيا) إلى هويته الصامتة.

يتكرر هذا البراديعم الأحادي بشكل افتراضي (مفروض=مفصوح).. تحت وطأة الصراعات وظروف التنشئة، وقضايا التربية، والتعليم، والمصير.. والوطنية، والقومية لتتشكل جملة من التساؤلات، من بينها: لماذا نحيا الاعتراب اللغوي مع حضور الهوية بكل أبعادها ومفاهيمها؟

Abstract: The identity Constitutes a polarized reference for each rhetorical and communicative exercise, and originally heritage derives Ontologith of affiliation to religion, politics, culture and ideology, ethics, and language in the forms of symbolism, and interpretations Altohemeh, and interactive sociology in certain circles, and environments declared, as well as the independence of the psychology of excellence of each individual in the same from others. systemic thought to form a unique, systematic and context unique, but all of these boundaries was not edited identity of its problems as a crisis epistemological origin (genealogic) and the logic transitions (Albrksys) in light of contemporary interpretations, and globalization renovations and upgrading.

Keywords: unicity - language - identity - originally - belonging - speech - difference - other - Ego - alienation

وكيف يبدع الإنسان بلغة أحادية، يتواصل بها مع الآخر الذي يتمثل أمامه اختلافا ماهويا، ويخالفه الهوية والإنتماء؟ وهل تكفي الهوية لتعويض ما فات الإنسان من "اللغة الأم" (لفظا ودلالة)؟ أم أن الهوية تسع كل الخطابات، وهي تنوع يرحب بكل تواصلية؟ وما هي طبيعة الأزمة التي تلازم الهوية في جدلها مع المنطوقات والكلمات ذات المنعطفات الأحادية في الفلسفة المعاصرة عموما، وفلسفة جاك دريدا تحديدا؟

الكلمات المفتاحية: الأحادية - اللغة - الهوية - الأصل - الانتماء - الخطاب - الاختلاف - الآخر - الأنا - الاغتراب.

أولا = هيمنة الهوية [بين سيادة المفهوم وسلطة الإلتناء]:

تكتسب "الهوية" (*Identité*) أفهوماتها حين تستقطب الهوى (*Passion*) في نزوعه، كما تتلاشي مع الـ"هو" (*Soi*) في هوس (*Manie*) أو هلوسة (*Hallucination*) أو هاوية (*abîme*) لما تتيحه الهوة (*Gouffre*) من مفارقات ومقاربات لأستمة منظومة، هذا الـ"هو" (*Soi*) بسياقه الآخر، أو الـ"هو" (*ça/Id*) بنسقه الـ"غير"، و«يدل مفهوم الهو (*Le ça*) أو هذا على الصراع بين الأنا والتحن/الأنتم، في نطاق التشكل الافتكاري، يعني الهو: 1- لا يوجد فاعل، أنا مسيطر على أليات فعله، 2- لا يوجد وعي خليق بأكتناه ذاته، 3- أن الأنا (*Le moi*) لغز، نتاج لعبة فكرية حقيقية، لا أصل هذه اللعبة ولا أساسها»⁽¹⁾، وتمنح الهوية الأنا (*Moi/Ego*) هيمنة (سيطرة=*Domination*) وهيئة (مظهر=*Aspect/ Apparence*) وسيادة، فبين مركزية/أنوية "الأنا" الذات المتعالية، يؤول الأنا الاختياري إلى الركونية (≠ الكينونة) مقابل "الأنا الأعلى" (*Le Sur-moi*)، فمثلما تحيل الهوية إذا ذاتها، فهي تقبل على غيرية متناهية في صراع بين أطراف الصيغ وأجزاء العبارات.

تتخذ الهوية مركزاتها في استقراء المعنى، واستنتاج المدلولات بكيفيات اعتبارية، ف«... ليس ثمة ما هو أقل تحديدا، وأكثر تشبها مما هي هوية كل واحد؛ ليس ثمة ما يصعب أن نحرزه أكثر من وجهنا حين لا تكون موجودة مرآة تعكس صورته. إذا حاولت أن أتطلع في ذاتي، معرّضا نفسي للخطر، لا أعرّ إلا على ليل، وضباب وهاوية»⁽²⁾ فمثلما تمكنا الهوية من تحديد هويتها بدقة، فإنها تستجيب لكل خصوصية في شمولية تسع كل مقصد بلا احتراز، ولا تجاوز، فصعب عندئذ الاتفاق على تمثل ملازم، أو مفهومة مدركة باحترافية النسج القاموسي والنسق الاصطلاحي، في انغلاق مقعد، وكذا افتتاح معقد.

يشكل الفكر بمعية الهوية ثنائية تنسج لاحتتمالات موعلة في يتم المعنى، وتخوم الانزياح، لأن «.. الهوية المتداخلة في ذاتها تخضع لحركة الشعور في انتقاله من جهة إلى أخرى ومن قطب إلى آخر.

¹ - خليل أحمد خليل (د)، مفاتيح العلوم الإنسانية، معجم عربي، فرنسي، إنكليزي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1989، ص 447 (هو).

² - جان فرانسوا ماركيه، مرايا الهوية "الأدب المسكون بالفلسفة"، ترجمة: أكمل داغر، مراجعة: دلطف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص15.

فالهوية البحتة المغلقة على ذاتها والتي تكوّن وحدة منطقية لا يمكن أن تكوّن في أساسها مبدأ للمفكر ومبدأ للمفكر. فالفكر الذي يفكر ذاته، أي الفكر الذي ينعكس على ما فيه لا يمكن أن يبدأ من هوية بحتة، إذ هو فكر منقسم منذ البداية وهو يعودته إلى ذاته يكون متعدداً لا وحدة فيه لأن الموضوع الذي يقصده يكون خارجيته من حيث ماله من تصورات فلسفية⁽¹⁾، فبين تداخل المنطوقات المستمدة من التفكير الخاضع لاعتقاد الهوية، وبين تراجع الملفوظات المستدامة والمرافقة لهويات مقترحة عند بدء الفكرة، تؤول كل مناسبة فلسفية إلى أدلوجات تقود الخطاب وتؤسس لوحدة تشوبها الدوغمائية من كل صوب.

تحليل العقلانية الهوية إلى مستويات إبستمولوجية متداخلية، بين سيمياء التأويل وبرأكسيس الواقع، لتتخذ منحى ميتودولوجيا مفتوحا «.. فالتصنيف أمر ليست له قيمة كبيرة، بكل تأكيد، ولكن الهوية على العكس. والأكثر أهمية واسترعاء للانتباه هو أن قدرة تصنيف معين على أن يوّد بصورة معقولة شعوراً بالهوية أم لا أمر لا بد أن يعتمد على الظروف الاجتماعية ... ولهذا لا بد أن يتجه التفكير في اختيار الهويات ذات الصلة إلى تجاوز ما هو ذهني خالص إلى أهمية اجتماعية طارئة ممكنة. فليس العقل فقط مرتبطاً باختيار الهوية. ولكن التفكير لا بد وأن يلاحظ السياق الاجتماعي والأهمية العارضة أو الممكنة لأن يضع الإنسان نفسه في فئة أو أخرى»⁽²⁾، فاللاهوية تعد هوية، لأنها تتحدد برفض كل انتماء، وهو في حد ذاته انتماء خالص ودقيق.

يؤكد عبد الكبير الخطيبي على أهمية استقلال مفهوم الهوية عن باقي الممارسات المعرفية والتطبيقات الحياتية، إذا سعينا لاستشراف مستقبلات ممكنة، لأنها قد تفقد إرادتها عند تداخلها مع باقي المركبات، ف«.. لا يمكن للهوية الأصلية، التي تقوم على الأصول اللغوية والدينية والأبوية أن تتحدد وحدها العالم العربي؛ فهذه الهوية قد تصدعت وتمزقت بفعل الصراعات والتناقضات الداخلية»⁽³⁾، فبين تصعيد الغرب، وتصعد التراث، تؤوب الهوية إلى اختلاف شرس، وتنوع كاذب، يفجر العنف والحرب .. ليتأكد بأن «فكر الخطيبي هو بشكل أساسي سؤال عن الهوية والاختلاف، فكر يريد للسؤال أن يمتد إلى كل الميادين، على اعتبار أن هذا السؤال ملغى في الثقافة الإسلامية؛ لأن الفلسفة العربية في نظره كانت تعرف على طريقتها ما تتعلمه الآن من الغرب، لقد نسينا ألف باء مسألة الوجود والوجود والهوية والاختلاف، ونتابع التثرثرة بلا حياء حول استعادة الهوية وحول الولادة العربية الثانية»⁽⁴⁾، فالتمسك بالهوية دون إرادة لتخييرها أو

1 - سامي أدهم، فلسفة اللغة تفكيك العقلي اللغوي، بحث إبستمولوجي أنطولوجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص55.

2 - أمارتبا صن، الهوية والعنف "وهم المصير الحتمي"، ترجمة: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 352، يونيو 2008، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص41-42.

3 - الخطيبي عبد الكبير، النقد المزدوج، دار العودة، لبنان، بيروت، 1980، ص9.

4 - محمد نور الدين أفاية، الهوية والاختلاف، نقلا عن د. أحمد عبد الحليم عطية، جاك دريدا والتفكيك، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص48.

لتغييرها يقودنا إلى الهاوية، فالخوف لا يتعلق بضياح الهوية، إنما بامتلاك هوية مدمرة، غير قابلة للنقد (القراءة) والهدم والبناء (التفكيك).

يشتكى الإنسان من خطورة ضياح الهوية واستلابها منه، وذلك لحبه الطبيعي والغرائزي لأواصر الانتماء وأواصل الاجتماع، والتحديد الذي يبدأ بالتسمية والترميز والوشم والتعيين والمكان ... والامتلاك، وعن سؤال حول الحق في الهوية نصه: "هل تريد القول إنك لا ترغب في امتلاك هوية؟"، يجيب جاك دريدا: «- بلى، أرغب في ذلك ككل الناس. لكنني حينما أحوم حول شيء مستحيل وأصمد أمامه كذلك، يمثل الـ "أنا" شكل الصمود نفسه. كلما اتضحت هذه الهوية، حُصِرْتُ في انتماء ما، يصرخ، إذا صدّ القول، أحد ما أو شيء ما: حذار الفخ، ستسقط في الشرك فلتتخلص. التزامك ليس هنا. الأمر ليس طريفاً»⁽¹⁾، فالرغبة في تخطي وتجاوز الغربية، وإظهار، وعن سؤال آخر يتعلق بالمباحثة في الهوية نصه: "هل العمل الذي تقوم به بحث عن هذه الهوية؟" يجيب دريدا: «- بلا شك لكن الحركة التي تحاول البحث عن ذلك تُبعد المرء عن نفسه فيمتعد أكثر. يجب التوصل إلى تعديد قانون هذه المسافة التي يتعذر بلوغها. إن التماثل هو تباين مع النفس، تباين النفس مع النفس. إذن مع ودون النفس وحدها. ليس لحلقة الرجوع إلى الولادة إلا أن تبقى مفتوحة كفرصة وكدليل على الحياة وكجرح. وإذا انغلقَتْ على أكتمال المفوظ أو المعرفة التي تقول "وُلِدْتُ" سيكون الموت»⁽²⁾، تنفتح الهوية على التوازن مع النفس والجسد والبيئة والناس والولادة والانهاء، مع سيمياء القول، وكيمياء الفعل في تناغمية (*Harmonieux*) محكمة تؤكد على صدق الهوية وسلامتها وتماسكها.

تغادر الهوية روحانية الشهادة وحسبية المشاهدة حين تستسلم لغلبة الأنا أو لقهري الهو.. ضد الآخر، ضد "اللاشبية"، في تصارع مع "المختلف" .. فـ «.. الهوية التي تزعم الدفاع عن وحدتها والانغلاق داخل سياجها والتشديد على انتمائها وجذورها إنما تغدر ببنيتها الاختلافية وتتكرر للتنوع الذي يغمرها ويخترقها. ما الهوية؟ لغة الكثرة والتنوع في سياق الوحدة والتماسك. إنها إذا جاز لنا التعبير بالقول المجازي والصوفي: الكثرة المشهودة في الوحدة المعقولة»⁽³⁾، وإن كنا نريدها "الوحدة المنشودة" التي تسع الجميع، وتحافظ على استقلالية كل فرد، دون أن يؤثر ذلك في انتمائه أو تؤدي إلى اختزال حضوره، والانتقاص من كرامته، ومن معتقداته ... ومن لغته الأحادية.

ثانياً = أحادية اللغة [بين احتباس اللسان وتشظي الخطاب]:

يحدثنا جاك دريدا عن "أحادي اللغة" بأنه الشخص الذي: «... يتحدث لغة معينة [و] هو في الحقيقة محروم منها، إنها ليست لغته وهي الفرنسية. ولأنه حرم من كل اللغات، ولأنه لا يمكنه في

1 - مجموعة من الكتاب "جاك دريدا"، مسارات فلسفية، ترجمة: محمد ميلاد، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2004، ص69.

2 - السابق، ص69.

3 - محمد شوقي الزين (د)، سياسات العقل "صدمة الواقع ومستويات القراءة"، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ط1، 2005، ص90.

الوقت ذاته الالتجاء -لا إلى العربية، ولا إلى البربرية (الأمازيغية)، ولا إلى العبرية، ولا لأية لغة من اللغات يكون أجداده قد تكلموها- ولأنه، أي هذا الأحادي اللغة، هو بشكل من الأشكال **محبوس لسانه** «*aphasique*»⁽¹⁾، فهو لا يستطيع ممارسة الكتابة لأنه لا يحسن إلا لغة واحدة، ولا يقدر على قراءة الآخر .. لأنه ليس مطلعها على لغات أخرى.. لتمكن من تفسير النصوص وفهم الخطابات.

تسهم **اللغة** (*Langage*) في تعيين دلالات الواحد (*Mono*)، والواحد (*Un*)، والأحد (*Unique*) لتقف عند ازدواجيات غائبة، ومثاقفات صارمة، وإمكانات محذوفة، .. يضيف **جاك دريدا** التباساً أبدياً حين يتحدث عن نفسه «... أما فيما يخصني، فإن اللغة التي رافقتني منذ مولدي وسترافقتني حتى مماتي هي الفرنسية. وللحقيق أقول، إنني لا أجد ما أقوله هنا، بل إنني لم أجد دائماً ما أقوله: فهل كان اختياري هذا جيّداً أم أنه كان سيّئاً؟ كل ما يمكنني قوله هو أنه كان كذلك وإلى الأبد»⁽²⁾، فحين يكون الإكراه اختياراً لسانياً، يغدو التحدث بلغة واحدة "الفرنسية" بطريقة جيدة، وخالصة، أفضل بألف مرة من الابتعاد عن هذه اللغة بدعوى العصبية أو العدوانية أو حتى رفضها مقارنة بلغات قد نعتقد أننا نستطيع أن نفكر بها، وتحدث بها، وتتواصل بها، ونكتب بها .. فهذا الكم من الكلمات لا يشفع لنا ضعف الألسن ولا بأن ننتسب إلى مشافهة حبيسة تفكير بلا اختلاف ولا تنوع .. لأن «... **دريدا**، ودولوز أكداً نسبياً صعوبة التفكير في الاختلاف داخل اللغة بالرغم من أن فكرهما يتوضع ضمن إشكالية الاختلاف ذاتها. لقد انتهى **دريدا** إلى القول بأن الاختلاف بالذات لا يمكن صياغته من خلال الفكر أو اللغة؛ لأنه ليس حضوراً ولا غياباً، إذًا، الاختلاف يتقدم ويظهر ولا يمكن إخضاعه لمنطق البرهان والتمثل»⁽³⁾، فنعمة الاختلاف تكون مع اختيار التراث وليس مع سياسات العقل، إذ كيف يتمتع العقل بالاختلاف وهو لا يبرح لغة ... ينكرها .. ويستخدمها .. معا.

ترافق **أحادية اللغة** "اللغة المعطاة" أزمنة شديدة تقتضي التمفصل بحثاً عن الإعتاق والانفتاح على لغات جديدة، وقد يبدو **دريدا** غريباً حين ينكر أصل اللغة ثم يدعو إليه .. وهذا وليد القهر الذي رافقه منذ طفولته فيصرح: «... في الواقع، وبالرغم من أنني غالباً ما استخدمت العبارة التالية "اللغة المعطاة" في حديثي عن اللغة الأحادية الموجودة، كالفرنسية على سبيل المثال، فإنه لا توجد لغة معطاة، فهناك بالأحرى شيء اسمه اللغة، هناك هبة تتعلق باللغة ... فاللغة هي ليست معطاة، لأنها في حقيقة الأمر لا توجد أصلاً. فهي عندما تستدعي كالضيف الذي يبدأ ضيافته قبل أن يتلقى دعوة الضيافة، وبما أنها ألزمت، فإنها تبقى هكذا لكي تكون معطاة، بحيث سيصبح ذلك شرط

1 - جاك دريدا، **أحادية الآخر اللغوية "أو في الترميم الأصلي"**، ترجمة وتقديم: د.عمر مهيب، الدار العربية ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص124.

2 - السابق، ص128-129.

3 - أحمد عبد الحليم عطية (د)، **جاك دريدا والتفكير**، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص48.

وجودها، أي أن تبقى لكي تكون معطاة»⁽¹⁾، فإنكاره لـ "اللغة المعطاة" محاولة منها للتحرر من هيمنة هذه الأحادية التي تسلبه كل شيء.

تستمد اللغة سلطتها من سيادتها وانتشارها، لتغدو أصلا لسانيا لكل مناقشة وحوارية تحت طائل الأيديولوجيا، والسياسة وحتى الاقتصاد، ليصبح المجتمع سؤالاً سيميولوجيا لا يقبل التعدد، اللغة (اللعنة) الأم أبويتها من أحاديثها و«... خلال مناقشة حادة، حكمت مباحث أخرى: الاستنباه القائم في أفق "اللغة الأم (الأصلية)"، الهيمنة الأحادية بما هي "سياسة محورها اللغة"، كولونيالية المدرسة والثقافة، شعرية الترجمة، الممنوع المتمحور حول ماهية الكلام، التاريخ القديم، والحديث، والوحيد ليهود-الجزائر-الفرنسيين، المقدمات والآفاق المستقبلية للحرب التي تحمل اسماً واحداً، الفوارق الموجودة في لغة الضيف بين السفارديم والاشكيناز، وأخيراً "الأدب الفرنسي" عندما يتحول إلى مثال يقتدى به مراهق معين، فإنه سيصبح أيضاً، وبدون شك، المثال المستحيل، ولغة الآخر التي لا يمكن تصورها»⁽²⁾، فاعتراف جاك دريدا بهيمنة اللغة في أحاديثها تظهر تمسكه بهويته في تعددها.. وتفضيله اللغة التي يحسن التعامل معها باحترافية الأديب، وبجرأة المتفلسف، في غياب اللغة الأم، والهوية الأصلية.. رغم الحسرة التي يبديها كلما تحدث عن اللغة الواحدة بأحادية لغوية.. لا تضيف شيئاً جديداً.. إلا ما يمكن أن يضيفه هو من خلالها «... والآن لنعد مرة أخرى إلى تلك العبارة قليلة الحكمة "نحن لا نملك أبداً إلا لغة واحدة"، ولنعمل نظراً فيها مرة أخرى لنستنتجها ونخرج منها ما لم نعرف إخراجها أو قوله، ولنتركها تتكلم عليها تصل إلى قول أشياء لم تقلها بعد»⁽³⁾، وقد يزداد الوهم حين يتحول عن اللغة الواحدة إلى حلم باستنطاق كل مكوناتها وإرغامها على الفضح والتحرر، وتطويعها... وتوليدها من نفسها.

يستطرد جاك دريدا في مناقشة أحادية اللغة الأصلية.. قائلًا: «... لقد ألمحت [...] إلى أن الكاتب العربي باللسان الفرنسي محجوز عليه داخل عبارة محددة، عبارة متأرجحة بين الاعترا ب واللااعترا ب (في كل ما يوحي به استخدام هذين المصطلحين): فهذا الكاتب لا يكتب لغته الخاصة، ولكنه ينقش اسمه المحول فقط لأنه لا يستطيع تملك أي شيء (على كل قد يملك لغة ما)، فهو لا يملك لغته المحكية الأم (الأصلية) لأنها لا تكتب أصلاً [لا بد من الإشارة هنا إلى أنه إذا كان هذا الكاتب لا يملك لغته الخاصة المحكية الأم (الأصلية) لجهة أنها لا تكتب، فإنه على الأقل "يمتلكها" كلغة "محكية"، وهذه ليست هي حال يهودي الجزائر الذي نجد أن لغته المحكية الأم (الأصلية) لا تمتلك لا الوحدة، ولا العصر، ولا القربى المقترضة في لغة محكية أم (أصلية)، بما أنها هي أصلاً لغة الآخر، لغة الكولون (المستعمر) الفرنسي غير اليهودي]، ولا اللغة العربية المكتوبة التي هي محل اعترا ب، وموضوع إنابة، ولا تلك اللغة الأخرى المعلومة والتي ترمي إليه

1 - جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية "أو في الترميم الأصلي"، مصدر سابق، ص 26.

2 - نفسه، ص 132.

3 - نفسه، ص 132-133.

بإشارات مفادها أن يتخلص منها وأن يمحوها من ذاكرته. إنها لمعانة لا نظير لها، يعانيتها ذلك الكاتب الذي لا يستطيع أن يضطلع بمسؤوليات هذه الهوية المخدوشة في وضوح فكري ينتصب وسط هذه العبارة، وهذه النفسية⁽¹⁾، فالانتساب إلى لغة واحدة في غياب لسؤالات الأصل، يريك الهوية، يضعف من الاعتقاد بأصالة هذه اللغة .. التي تنتهي إلى أسماء وكلمات .. بلا روح ولا مكاشفة.

ثالثا = سؤال "الهوية واللغة" عند جاك دريدا [نحو لا "مركزية" الفلسفة]:

يرى عمر مهييل (د) أن السؤال المحوري [السؤال المغلق] الذي شغل جاك دريدا في كتابه "أحادية الآخر اللغوية" يرتبط حول علاقة اللغة بالهوية قائلا: « .. هل يمكن للغة أن تكون أساسا للهوية. ومن ثمة أساسا للمواطنة؟ وهل في مقدور اللغة لحالها أن تشكل ماهية الهوية والمواطنة؟ على حد سواء؟»⁽²⁾، إذ يشكل سؤال انفصال اللغة عن الهوية جزءا من مفهوم الهوية، فحين يعترف جاك دريدا «... نعم، أنا لا أملك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي "Je, Oui, or ce n'est pas la mienne. n'ai qu'une langue"»⁽³⁾، يؤكد ذلك الشعور بالتعالي حين يفصل بين اللغة وبين الهوية، حتى وإن شعر بمأساة هذا الانفصال، الذي لا يحرمه من التفكير بلغة أحادية في هوية ضائعة .. مسلوقة.

ويستطرد جاك دريدا في مكان من كتابه قائلا: «كيف يمكننا الإقرار بأننا نملك لغة واحدة ونقر في الوقت ذاته بأنها ليست لغتنا؟ ومن ثمة ما هو السبيل لمعرفة ذلك، وكيف يمكننا الإدعاء بأننا نعرف ذلك؟ بل إننا لتساءل: ما الحكمة الكامنة وراء محاولتنا اقتسام هذه المعرفة مع غيرنا ما دام أن هذا الغير ذاته ... هو أيضا لا يعرف، ولا يستخدم إلا لغة واحدة؟»⁽⁴⁾. يحاصر كل باحث في ثنائية "الهوية واللغة" كما هائلا من الأسئلة المضمرة .. والتي تحضر أيضا حتى ولو لم تمكن من تحديد الهوية بما يتناغم مع أصل اللغة .. فيجوز في حق كل مفكر أن يفصل الهوية عن اللغة ... سعيا منه لإيجاد مفاهيم متقابلة غير متداخلة، في فصل تام بين اللغة والاعتقاد ... وبين الأصل والكلام.

يوصل دريدا سرد بداياته التي تكشف تلك الظروف التي أدت إلى وجوده خارج اللغة الأصلية ليعوضها بلغة أخرى لم يخترها، ولا يبتغي أن تشكل له هوية ما ... «.. إن تعلقي بالفرنسية يأخذ أشكالا أقدر في بعض الأحيان أنا ذاتي بأنها أشكال "عصائية". فأنا أشعر بالضياع خارج اللغة الفرنسية. في حين أن اللغات الأخرى، كنتك التي أستطيع أن أقرأها ولكن بصعوبة بالغة، أو تلك التي أحاول فك رموزها، أو أن أتكلها أحيانا، فإنها لغات لا أستطيع أن أسكنها أبدا. ذلك أن مقر "السكنى" يعني، بالنسبة لي، البداية الحقيقية لإمكانية القول وسأبقى كذلك. إنني وأنا خارج اللغة

1 - السابق، ص 127.

2 - نفسه، ص 10.

3 - نفسه، ص 24.

4 - نفسه، ص 26.

الفرنسية لا أشعر فحسب بأنني تائه تمامًا، خائر القوى ومذموم، ولكن أشعر أيضًا بأنني أعمل على تشريف أو خدمة كل الألسن المتكلمة، وبكلمة واحدة، أنا أكتب بطريقة "أجمل" وأنا أشهد همة المقاومة الموجودة في فرنسياتي و"الصفاء" الذي يطبعها، فرنسياتي التي أتكلّمها بصوت عالي، ومقاومتها المستتبسة للترجمة: على كل اللغات بما في ذلك الفرنسية المغايرة لفرنسياتي»⁽¹⁾، لذا فإن فرنسية دريدا تنم عن براغماتية جريئة، فهو أكثر فرنسية لسانيا من غيره .. لكنه هويته أقل بكثير من كل فرنسي أو يهودي أو جزائري، فأحادية اللغة لا تضع أمامه خيارات أخرى. يلزم التفكير في اللغة .. تفكيكا للهوية، محاولة لتجريد اللغة من هويتها، والبحث عن هوية ضائعة (صامتة)، لا تحسن اللغة استنطاقها .. نحو لغة واصفة، مثلما يقودنا التفكير إلى اعتقاد بوجود ظواهر منفصلة وأخرى قابلة للتشذّي .. إذ تظهر لنا مقولة جاك دريدا بأنه «..أعتقد دائمًا أن من الضروري أن أوجه اهتمامي أولاً إلى الظواهر اللغوية وظواهر التسمية والتاريخ وإلى هذا القهر على التكرار (البلاغي والسحري والشاعري في آن واحد). وأن أوجه اهتمامي إلى مغزى هذا التكرار وإلى ما يترجمه أو ما يخونه. لا لكي نتغلق في اللغة كما يحاول المتعجلون إقناعنا بذلك وإنما، على العكس من هذا، من أجل أن نحاول أن نفهم على وجه الدقة ما يحدث فيما وراء اللغة وما الذي يدفع إلى هذا التردد اللانهائي: "11 سبتمبر، 11 سبتمبر، September eleventh" دون أن نعرف عمّ نتحدث، حيث يلمس كل من اللغة والمفهوم تخومهما»⁽²⁾، ينبثق الفهم من تركيبات جاهزة وملفوظات حاضرة .. تصعب من استقلالية الحكمي واستقامة المعنى .. فلا حرية وسط لغة أحادية .. بعدها الصمت والموت.

تعود الذاكرة بجاك دريدا إلى مراحل من التسميات الأولى .. في البدء «.. عندما ولد دريدا (وهذا اسم عائلته أو كنيته) سُمّي باسم جاك Jackie وكمعظم الجزائريين كان لدريدا اسم آخر غير رسمي (أي غير مُسجّل في دوائر الدولة والأحوال الشخصية) وهو اسم إلي Elie كان هذا حاله في الجزائر، لكن ومع قدومه إلى فرنسا بعمر 19 سنة، أراد دريدا أن يصبح "فرنسيا حقيقيًا" فقَرّر أولاً تغيير لهجته التي كان يمكن أن تفضح أصله الجزائري حيث كان دوي الأقدام السوداء (وهو الاسم الذي أُطلق على الفرنسيين العائدين من الجزائر) يُعاملون من قبل الفرنسيين المقيمين مُعاملة فيها شيء من الاحتقار. هل كان لهذا الحرج من اللهجة عند دريدا علاقة ما لتفضيله الكتابة (الصامتة) على الصوت (الذي يُمكن أن يفضح الأصل)؟ سؤال على السؤال»⁽³⁾، فسؤال الأصل إمكان لغوي بامتياز ... بكل ما يحمله من هوية وكنوثة وصراع .. أو أنه عائق بامتياز أيضا ... لكل مجاهرة شجاعة.

¹ - نفسه، ص 107-109.

² - جاك دريدا، ما الذي حدث في 11 سبتمبر؟، ترجمة: صفاء فتحي، مراجعة: بشير السباعي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2003، ص55.

³ - النبواي خلدون، في بعض مفارقات الحداثة وما بعدها "دراسات فلسفية"، دار المدى، دمشق، سورية، ط1، 2011، ص19-20.

ينتهي صراع ثنائية "اللغة والهوية" إلى سؤال علاقة "صراحة التفكير بصدق الإلتزام" .. إذ «..» أراد دريدا أن يلغي كل ما يفصح انتماءه، وبالأحرى كان يريد أن يتحلل من كل انتماء ومن أي هوية ممكنة. لم يكنف دريدا بتغيير لهجته لتصبح لهجة فرنسية خالصة، بل وباريسية وإنما قام أيضاً بتغيير اسمه الأول عندما بدأ ينشر أولى مقالاته. هكذا سيختار **جاكي** أو **إلي** اسم **جاك** ليُعرف به ككاتب وكفيلسوف. كان دريدا يُريد من جديد أن يتخلص من هوية أخرى، فباختياره لاسم **جاك**، يختار دريدا اسماً فرنسيًا مسيحيًا بل وكاثوليكيًا سيعفيه من حرج سؤال الهوية اليهودية التي كان يمكن ل**جاكي** أو **إلي** أن يفصحاها. باتخاذ اسم **جاك** يُشبهه دريدا نفسه بأولئك اليهود الذين يعتقدون الكاثوليكية في الظاهر مُداراة ومسايرة للواقع. ولكن كان أولئك اليهود يعتقدون المسيحية في الظاهر خوفًا أو مسايرة لواقع الحال بينما يحافظون على عقيدتهم اليهودية في السر، فلا شك أن دريدا لم يتخل عن هوية دينية كانت أم اسمية لينشئ هوية أخرى، وإنما هي محاولة اعتناق من مكونات هوية مُسبقة وعدم الانتماء الحقيقي والصادق للهوية الجديدة ... فهل لهذا التنكر للهوية والرغبة في التنصل من كل ما يُحدّد الانتماء جذرٌ في لا وعي دريدا الذي سينتجلى لاحقًا في تفكيكيته التي ستحاول أن تعمل على إلغاء مفهوم الهوية أو انتشارها وتعددها وتفكيك مفهوم الأنا؟ وهذا سيقودنا إلى التساؤل. من هو دريدا إذن؟ ما هي هويته وراء هذا التعدد الاسمي؟ ثم هل هناك رابط يحدّده اللاوعي بين التعددية الاسمية لدريدا وبين عمله كفيلسوف على اسم العلم "*le nom propre*" الذي محوّر سؤاله الأساسي حول: "من الذي يتكلم؟" من يحجب من إذن **جاكي** أم إلى أم **جاك**؟ مَنْ مَنْ هؤلاء يُمسك بالقلم ويكتب؟⁽¹⁾، تشكل الأسماء [التسميات] هويات [هوايات] مغلقة .. ومنفصلة .. بقدر ما تحمله من أحاديث .. واختلافات .. غير أنها تؤول إلى أصل موحد .. ماهوي .. والغاء لكل ثنائية تمهد لتعاون لساني أو تطابق بياني ... أو محادثة مثمرة.

تقودنا تيمات الهوية إلى الاشتغال بسؤالات الأصل في محاولة لتجاوز طمس المعنى، ورتابة الحكيم، فلا إمكان لتطابق الصورة مع الأصل، وإذا كانت اللغة تمثل الصورة التي تسرد الهوية لتطابقها، فحسب **دريدا** الذي يبدو «.. أكثر من مشغول بهاجس المعرفة تلك التي اختزنت في تركيبها ما يبقياها في حالة غياب، بمعنى (الهوية) القائمة على المطابقة، كما نقول هنا وهناك (صورة طبق الأصل)، وهذا غير ممكن، حيث الأصل يبقى أصلاً، والصورة تكون مختلفة عن الأصل، وعلى الصعيد المعاملاتي، نجد اختلافاً بيناً بين الصورة غير المعترف بها، إلا بعد التوقيع عليها لتأكيد أنها نسخة (كوبي) عن أصل، مع ختم معلوم، ومن خلال التدقيق جيداً، كون المعترف أصلاً قد يكون شبيهاً لشبهه، أي نسخة مصورة، تزويرا (سيمولاًكر)، فما بالك، ونحن نضد قضايا معرفية لا حدود تسورها، أو تبلورها»⁽²⁾، فتعد مقولة "نسخة طبق الأصل" خراباً، واحتيالاً وخيانة

¹ - نفسه.

² - إبراهيم محمود، من مقدمة **جاك دريدا**، انفعالات، ترجمة: عزيز توما، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط1، 2005، ص20-21.

وتزويراً لأصل، ومحاولة للارتقاء بالنسخة المصورة التي لا تحمل هوية إلا أنها تشبه الأصل، هل هو بحث عن الهويات داخل اللغة، بين الاختزان والاختزال، وتعد الترجمة خيانة تنسف هوية اللغة، وقضية التأويل والتفسير والفهم.

يعتبر ريتشارد رورتي بأن فلسفة جاك دريدا [في بنائها اللغوي] هي لغة داخل لغة ... هوية أحادية لشخص واحد هو جاك دريدا وسط مجموعات من الشخصيات المترددة المتداخلة، الغائبة هوية، الحاضرة لغويًا فحين «يشير دريدا إلى الفلاسفة المتمركزين لوجوسياً، فلاسفة يتشبثون بهذا الأمل في المباشرة: "لست أحادية المعنى سوى جوهر اللغة أو على الأصح هي الغاية من اللغة، وما من فلسفة كان بقدرتها التخلي عن هذا المثل الأعلى الذي يعود إلى أرسطو. وما الفلسفة سوى هذا المثل الأعلى ... ولن يتحقق التحرر من هذا التراث المتمركز لوجوسياً إلا بالكتابة والقراءة على نحو يتخلى عن هذا المثل الأعلى. كما أن تدمير هذا التراث لن يتم إلا برؤية أن كل النصوص التي يُنتجها تدع نفسها بنفسها؛ ذلك أنها تدأب على استخدام اللغة لعمل ما لا تقدر اللغة على عمله. واللغة نفسها إن جاز التعبير تُصيب بالضلال أية محاولة لتجاوزها (الكتابة)»⁽¹⁾. ينوب التعالي (الأعلى) عن سؤال الهوية (الأصل)، في رصد التفكير الشريد الذي يكسب الفلسفة ماثقة تتناسب مع الإشكالات المعاصرة في زمن العمولة والحضارات .. واقتراس الهويات .. أو تناسخها، وتداخل اللغات .. أو توحيدها.

استنتاج:

تغدو الهوية مناسبة للتنوع والاختلاف، واللغة سبيلاً للتواصل والتفاهم، لكن حين تتحول الهوية إلى انفعال، واللغة إلى رد فعل لهذا الانفعال، وحين يغيب الاختيار في هيمنة لأحادية اللغة باكتساب أو إرغام .. يبدأ التفكير خارج اللغة بما هو متاح منها .. لذا ساير جاك دريدا التفكير في اللغة والفلسفة مثلما عاش تشتتاً في الهوية، فهو لا يبتغي أن يتفكك لوحده [ذاتياً] .. بل ترصد أن يعيش المأساة [التراجيديا] بكل تفاصيلها وإيقوناتها حتى يمارس التفكير في وحدة أنطولوجية عامة وتامة، فحين يحرم اللسان من هويته .. له أن ينتسب إلى هوية أخرى تعطيه الحق في الكلام .. الحق في التعالي .. الحق في الحضور .. في ممارسة الاختلاف بإرادة واقتدار .. بعيداً عن صراع الأسماء .. والهويات التي لا تختلف كثيراً عن صراع حول الدمى التي سنكسرهما ذات يوم حين نمل من اللعب بها.

¹ - رمان سلدن، موسوعة كامبردج في النقد الأدبي "من الشكالية إلى ما بعد البنيوية"، مراجعة وإشراف: ماري تيز عبد المسيح، المشرف العام: جابر عصفور، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2006، مج 4-8، ص 284.